الآراء التى يعتقدون أنها تهدد سلامة الدولة أو تنشر الفتنة بين الناس وكان هؤلاء وأولئك يستوحون ما يسيرون عليه فى هذا الصدد من روح الإسلام ومبادئه. بل إن احترام بعض الخلفاء لحرية الرأى فى عصر بنى أمية وبنى العباس قد وصل إلى حد جعلهم يتحرجون من وضع أى قيد فى هذا السبيل. فقد كان الناس فى عهد عمر بن عبد العزيز والمأمون بن هارون الرشيد وغيرهما يتناقشون بكامل الحرية وفى حضرة الخليفة نفسه فى شأن الأسرة المالكة ومبلغ استحقاقها للخلافة.

٢

موقف الإسلام من حرية التفكير العلمى

ويدخل فى الحرية الفكرية ما يسمونه بالحرية العلمية وحرية التفكير العلمى، وهى أن يكون لكل فرد الحق فى تقرير ما يراه فى صدد ظواهر الفلك والطبيعة والحيوان والنبات والإنسان، والأخذ بما يهديه إليه تفكيره وما يقتنع بصحته من نظريات، والتعبير عن رأيه بمختلف وسائل التعبير.

ولا يختلف موقف الإسلام حيال هذه الحرية الفكرية الخاصة عن موقفه حيال الحرية الفكرية العامة الذى بيناه فيما سبق.

فالإسلام لم يحاول مطلقًا أن يفرض نظرية علمية معينة بصدد أية ظاهرة من هذه الظواهر. ولم يعرض القرآن ولا السنة الشريفة لتفاصيل هذه الأمور. وكل ما فعله القرآن فى هذه الناحية أنه استحث العقول على النظر فى ظواهر الكون، وحفز الناس على التأمل فى هذه الشئون واستنباط قوانينها العامة، وأثار فى نفوسهم حب الاستطلاع حيال الأمور التى لا تثير الانتباه بطبعها لتكرر حدوثها وسيرها على وتيرة واحدة وإيلاف الناس النظر إليها كشئون الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب وتتابع الفصول وتناسل الحيوان وتكاثر النبات وطفو بعض الأجسام على الماء ونزول المطر... وما إلى ذلك من مسائل العلوم والفنون، فبيّن لهم أن هذه الأمور جديرة بالتأمل، وأن فيها مجالاً كبيرًا للنظر والعبرة والبحث العلمى.

وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾؟![1]. ويقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ

(١) آية ١٨٥ من سورة الأعراف.

ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[1]. **ويقول:** ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾[2]. **ويقول:** ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾[3]، **ويقول:** ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾﴾[4]..

وهكذا نرى توجيه الله تعالى لنا إذ طَوَّف بنا جميع أنحاء الكون سمائه وأرضه، حيّه وميته، حيوانه ونباته وإنسانه،

---

(١) آية ١٦٤ من سورة البقرة.
(٢) آيتى ٤٣، ٤٤ من سورة النور.
(٣) آيتى ٢٢، ٢٣ من سورة الروم.
(٤) آيات ١٧ – ٢٠ من سورة الغاشية.

لا لشيء إلا لحثّ العقول على النظر والتدبّر فى هذه الظواهر واستنباط القوانين العامة الدقيقة التى تحكمها وتسير بمقتضاها، ولنتخذ من ذلك دليلا على قدرته وحسن صنعه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ (١).

وفى جميع هذه الآيات وما إليها التى يزخر بها الكتاب الكريم لا نشتَمّ أية رائحة لفرض نظرية علمية معينة، ولم يقصد القرآن بالتوجيهات الواردة فيها إلا ما ذكرناه من حث العقول على النظر فى محتويات الكون، ثم ترك بعد ذلك لكل فرد كامل الحرية فى تقرير ما يراه، والانتصار له، واعتناق ما يقتنع بصحته من نظريات.

ولا أدل على ذلك من أن القرآن فى إجابته عن سؤال وجِّه إلى الرسول عن مراحل القمر وأسباب تزايد قرصه وتناقصه، قد تحاشى أن يدخل فى تفاصيل هذه الأمور الفلكية وقوانينها، حتى لا يفرض نظرية علمية على العقول، كما فعلت الكاثوليكية المنحرفة من قبل، وحتى لا يحجر على الأذهان النظر فى هذه الأمور، واكتفى بأن يذكر بعض فوائد القمر، وأنه يحدد

(١) آية ٨٨ سورة النمل.

مواقيت الشهور والأيام التى تؤدى فيها شعائر الحج. وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[1]. فكأنه يقول لهم يكفى أن تعلموا فيما يتعلق بصلة الأهلّة بشئون الدين أنها مواقيت للناس فى الشهور والصيام وشعائر الحج. أما ما وراء ذلك من أسباب تزايد قرص القمر وتناقصه وخسوفه أحيانًا أو حجبه عن النظر وعلاقته بالشمس والأرض... أما هذه الأمور وما إليها فأترك لعقولكم كامل الحرية فى بحثها والاهتداء إلى كنهها وأسبابها.

ولا أدل على ذلك أيضًا من أن الرسول ﷺ حينما أشار على بعض الناس بعدم تأبير النخل، أى تلقيح إناثها بطلع ذكورها، ثم تبين أن ذلك يؤدى إلى عدم إثمارها، ذكر أنه إنما تحدث فى ذلك برأيه الخاص، وأن رأيه الخاص عرضه للخطأ والصواب، وأن هذا الحكم يسرى على كل ما يتحدث عنه من أمور الدنيا، وأن للناس الحق فى البحث فى أمور دنياهم وعلاجها على الوجه الذى تهديهم إليه تجاربهم وأفكارهم، وأنهم قد يكونون أعلم ببعضها من الرسول ﷺ

(١) آية ١٨٩ من سورة البقرة.

نفســه، وأن الأمور التى كُلف تبليغها إلى الناس من قبل الله، وهى التى لا يمكن أن يتطرق إليها الشــك، مقصورة على شئون الدين: عقائده وشرائعه. ونص هذا الحديث كما أخرجه مسلم فى صحيحه عن موســى بن طلحة عن أبيــه مرفوعًا: «إن كان ذلك ينفعهم فليصنعوه، فإننى إنما ظننت ظنًا، فلا تؤاخذونى بالظــن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شــيئًا فخــذوا به، فإنى لن أكذب على الله عز وجل». وفى رواية رافع بن خديج: «إنما أنا بشر؛ إذا أمرتكم بشىء من أمر دينكم فخذوا به؛ وإذا أمرتكم بشىء من رأيى، فإنما أنا بشر». وفى رواية عائشة: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»[1].

(١) انظر تفصيل ذلك فى شــرح النووى على مســلم وفى رسالة التوحيد للإمام محمد عبده وتعليق الســيد رشيد رضا فى هذه الرسالة على هذا الموضوع وفى مقال لنــا فى عدد أكتوبر ١٩٦٣م فى مجلة منبر الإســلام عنوانه: «حديث تأبير النخل وما يرشد إليه».